إنسانية الخطاب العلوي
قراءة معرفية في الأبعاد القيمية

The humanism of Imam Ali speech knowledge reading in dimensions of values

م. د. آمال خلف علي آل حيدر

كلية الإمام الكاظم (عليه السلام)

للعلوم الإسلامية الجامعة

Dr. Amal Khalaf Al haider

Imam Kadhim (peace be upon him)

University college of Islamic sciences

ملخص البحث

توسم الخطابات ولاسيما الخطابات التوجيهية ذات البعد المعرفي الإرشادي، التي تشكل مساحة اشتغالها (الإنسان) بالخطابات الإنسانية، والخطاب العلوي شَكَّل على وفق محمولاته القيمية خطاباً إنسانياً اتّسم بالشمولية والعمق والتطبيق العملي، فهو خطاب يخاطب الإنسانية في كل زمان ومكان، والقيم التي عرضها الخطاب العلوي هي قيم قرآنية حث عليها الله جَلَّ جلاله، وقد انقسمت على:

قيم أخلاقية: مثل: حب الخير، والتعاون ، والنصيحة ، والتضحية.

وقيم معرفية، مثل: العلم والمعرفة والتفكير، التي تحقق للإنسان إنسانيته التي من دونها يخرج من دائرة الإنسانية.

ويسعى البحث لبيان هذه القيم التي تشكل الإنسان في مفهوم الخطاب العلوي، وهذه القراءة تشكل الخط البياني في الكشف عن خطين متوازيين بين الرقي والانحطاط، والمعيار الفاصل بين القيم الأخلاقية والمعرفية.

وقد توصل البحث إلى الكشف عن إنسانية الخطاب العلوي التي تمثلت ب «التعاون» «والإيثار» و«حب الخير».

Abstract

The speeches marked-especially the guidance speeches having guidance and knowledge dimension which «human» filled its space as humanitarian discourses and Imam Ali speech forms according its values a humanitarian discourse was characterized by inclusiveness, pertinence and practical application its speech addresses the humanity at all times and places and the values which showed by Imam Ali speech is a qurani values urged by Allah Almighty divided into:

Moral values like love for good, collaboration, advice and sacrifice.

Knowledge values like science, knowledge, thinking which achieve for human his humanity and without it he will get out from his humanity and the research seeks to declare this values which forms human in the concept of Imam Ali speech and this reading forms the graf to reveal for two parallel lines between sophistication and degeneration and the criteria that separates between moral and knowledge values

And the research finds to reveal for the humanism of Imam Ali speech which represented by <<collaboration>> and <<altruism>> and <<love for good>>.

توطئة

نظر الإمام علي (عليه السلام) بدقة وعمق وشمول للإنسان، ودرس جميع أبعاد حياته وعلاقته مع خالقه، ونفسه، ومجتمعه، وحكومته وغير ذلك، فوضع له نظاماً خاصاً لهذه الحقوق والواجبات، وجعله مسؤولاً عن رعايتها وصيانتها؛ ليُنشئ مجتمعاً إسلامياً تسوده العدالة الاجتماعية، والعلاقات الوثيقة بين أبنائه القائمة على أساس الثقة والتعاون والمحبة، وغير ذلك مما يسهم في تنظيم العلاقات الإنسانية بين أفراد المجتمع، وكان للإمام علي (عليه السلام) الدور الكبير في وضع المناهج التربوية الحية لتنظيم سلوك الإنسان، فضلاً عن تطوير حياته وبناء حضارته على أُسس رصينة تضمن له الاستقرار النفسي من خلال بيان معنى الإسلام الحقيقي للناس، وإنه دين الأخلاق والصفح والحلم، ودين التسامح الذي يظهر الإنسان فيه مدى حبه للآخرين وسعيه للارتباط معهم بروابط إنسانية قائمة على أسس الخير والمحبة، ودعا أيضاً إلى نبذ التعاليم الجاهلية والالتزام بالتعاليم الإسلامية التي أنقذت الإنسان من الجهل والظلم والضلال، ويبدو ما ذكرناه آنفاً واضحاً جلياً في ثنايا الخطاب العلوي، سواء كان خطباً أو رسائل تهدف إلى بث روح الإخاء والمحبة بين المسلمين فضلاً عن حرصه على وحدة الصف والكلمة.

المطلب الأول

القيم الأخلاقية وأبعادها في أنسنة الخطاب العلوي

أسس الإمام علي (عليه السلام) دعائم العلاقة السليمة التي ينبغي أن تقوم بين الإنسان وخالقه، كالتسليم المطلق لإرادته تعالى شأنه، والعبودية الخالصة له والخشية والخوف منه،

فضلاً عن طاعته والتوجه إليه وحده من دون غيره، فضلاً عن علاقة الأفراد فيما بينهم، من خلال عنايته (عليه السلام) بتربية المجتمع الإسلامي الإنساني، حيث جاءت محاولاته لمعالجة الانحراف الأخلاقي في المجتمع فضلاً عنه في الإنسان نفسه، من خلال التعرف على جذوره العميقة أولاً، حيث عزا السبب الرئيس في انحراف المجتمع إلى حب الدنيا والتعلق بحبالها الواهمة كما ورد في الحديث النبوي الشريف «حبُ الدنيا رأس كل خطيئة»، إذ يترتب على هذا الحب فقدان بصيرة الإنسان، فضلاً عن تعطيل العقل وإعمال الشهوات والهوى التي تصبو إليها النفس الخاسرة[1].

يشخص الإمام (عليه السلام) مجموعة من العقاقير الإنسانية لمعالجة الانحراف الإنساني في المجتمع منها:

أولاً: التقوى

ورد في إحدى خطب الإمام (عليه السلام) التي تضمنت وصفه الدقيق للمتقين موضحاً السر الكامن وراء وصولهم إلى هذه المرتبة من الكمال المتمثل بالتقوى بقوله «**فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ، مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الِاقْتِصَادُ، وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ، غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ، نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ كَالَّتِي نُزِّلَتْ فِي الرَّخَاءِ، وَلَوْ لَا الْأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمْ، لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ، شَوْقاً إِلَى الثَّوَابِ، وَخَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ، عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ، فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ**»[2].

يصف الإمام (عليه السلام) المتقين فيقول: «**فالمتقون فيها هم أهل الفضائل**» أي إن المتقين في الدنيا هم أصحاب الفضائل بل أهلها أي أصل الفضائل، فهي تنبع منهم، ثم

يوالي الإمام (عليه السلام) وصفهم فيقول: «**منطِقُهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيُهم التواضع**» فلا يقولون بألسنتهم إلا الصواب والحق والصدق، أما ملبسهم فهو البساطة والتواضع فضلاً عن عدم التكلف للملبس، فهم لم يشغلوا أنفسهم بأمرٍ غير ذا أهمية عندهم، أما مشيُهم فينماز بالتواضع وعدم الكِبَر والخُيلاء، فهم بذلك مصداق للحديث الشريف «**مَنْ تواضع لله رفعه الله**» تواضعوا لله فرفع شأنهم فضلاً عن مراتبهم، واستغرق الإمام (عليه السلام) في وصفهم فأضاف «**غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم**» انتهج المتقون خطاً مستقيماً لأنفُسِهم فأشاحوا بأبصارهم عما حرمه الله، وصموا أسماعهم عن غير العلم النافع في رضا الله تعالى، فالتقوى تعني الالتزام بأوامر الله تعالى ونواهيه وهي في (عرف الشرع والقرآن عبارة عما يتقى به من النار)[٣]، إن للتقوى مضمون قرآني محض جاء به الإسلام فكراً مجسداً بسلوك عملي؛ لأنها تعني امتزاج النظرية بالتطبيق[٤] فكانوا مصداقاً فعلياً للتقوى، كذلك تابع أمير المؤمنين (عليه السلام) وصفه للمتقين فقال: «**نُزلَتْ أنفسهم منهم في البلاء كالتي نُزلَتْ في الرخاء، ولولا الأجل الذي كَتَبَ الله عليهم، لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفةَ عين، شوقاً إلى الثواب، وخوفاً من العقاب**» يتبين من هذا الوصف حال المتقين الذين لا يأبهون بالبلاء النازل أو الذي ينزل تباعاً في ساحتهم، فقد وطنوا أنفسهم على التسليم المطلق لمشيئة الخالق فلا يستشعرون الألم الظاهري بل على العكس من ذلك فأنهم يتذوقون حلاوة الإيمان من خلال مرارة البلاء؛ لأنه يقربهم لله زُلفى، فضلاً عن الرغبة الكبرى لملاقاة العلي

القدير؛ تشوقاً للفوز بثوابه وخوفاً من عقابه إن طالت بهم الآجال، أما قوله (عليه السلام) «**عَظُمَ الخالق في أنفسهم، فصَغُرَ ما دونه في أعينهم**» أي صاروا لا يعظمون شيئاً سوى الله سبحانه وتعالى وهذا مصداق لقول أمير المؤمنين «**إنما عبدتك لأنك أهلاً للعبادة**» فتصاغر كل ما هو دون مرتبة الإله تعالى شأنه في أعينهم، كذلك ما ورد في وصية الإمام علي (عليه السلام) للحسنين (عليهما السلام) حيث قال: «**أُوصِيكُمَا بِتَقْوَى اللهِ، وأَلَّا تَبْغِيَا الدُّنْيَا وَإِنْ بَغَتْكُمَا، وَلاَ تَأْسَفَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا زُوِيَ عَنْكُمَا، وَقُولاَ بِالْحَقِّ، وَاعْمَلاَ لِلْأَجْرِ، وَكُونَا لِلظَّالِمِ خَصْماً، وَلِلْمَظْلُومِ عَوْناً، أُوصِيكُمَا، وَجَمِيعَ وَلَدِي وَأَهْلِي وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي، بِتَقْوَى اللهِ، وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ، وَصَلاَحِ ذَاتِ بَيْنِكُمْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ جَدَّكُمَا (صلى الله عليه وآله وسلم) يَقُولُ: «صَلاَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلاَةِ الصِّيَامِ»، اللهَ اللهَ فِي الأَيْتَامِ، فَلاَ تُغِبُّوا أَفْوَاهَهُمْ، وَلاَ يَضِيعُوا بِحَضْرَتِكُمْ**»[٥] يوصي الإمام ولديه بوصايا خاصة وأخرى عامة وثالثة مشتركة، فالخاصة منها هي ألا تبغيا الدنيا وأن بغتكما، أي لا تُجْهِدا أنفسكما بطلب الدنيا حتى وإن طلبتكما؛ لأن طالب الدنيا لا يلقى إلا العناء والتعب، حتى وإن تذرع بضرورة الكسب فهذا الكسب سيُترك ورائه كما قال تعالى ﴿**وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ**﴾[٦]، كذلك عدم الضجر والتأسف على ما تأخر أو مُنِعَ عنكما لعل فيه خيرٌ لكما لقوله «**ولا تأسفا على شيء زوي عنكما**»، وقول الحق في أصعب الأحوال «**وقولا بالحق**»، وأن تبغيا من عملكما الأجر من الخالق لا من المخلوق «**واعملا للأجر**»، وأن تكونا خصماء للظالم وللمظلوم عوناً وابغيا في ذلك القربة لله تعالى «**وكونا**

للظالم خصماً وللمظلوم عوناً»، أما الوصايا العامة «ونظم أمركم» أي أن تعمدوا إلى تنظيم أموركم بالشكل الذي يضمن سير العمل بالوجه الأمثل، كذلك ذكر الإمام (عليه السلام) «**صلاح ذات بينكم**» أي لا تتركوا أمراً فاسداً بينكم واعمدوا إلى إصلاحه فإنه أنفع للمجتمع فضلاً عن أفراده وكما يصف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) «**صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام**» مع ما للصلاة والصيام من الأجر والفضل عند الله، أفاض الإمام (عليه السلام) في وصاياه العامة فذكر الأيتام وأعطاهم مساحة في المجتمع حيث شدد على رعايتهم في كافة المجالات التربوية والاجتماعية فضلاً عن الاقتصادية فقال: «**الله الله في الأيتام فلا تُغبُوا أفواههم ، ولا يضيعوا بحضرتكم**»، أما وصيته المشتركة فهي تقوى الله، ويهدف إلى دعوة الناس للتعاون فيما بينهم والتطوع لخدمة بعضهم بعضاً، فضلاً عن الاهتمام بمناطق الضعف والحاجة في المجتمع من خلال الحث على إصلاح هذا الضعف الحاصل في مختلف جوانبه الدينية والدنيوية.

ثانياً: حُسن الخُلُق

إن المجتمع الذي لا يتعامل أفراده بالأخلاق الحسنة، لا يمكن له بلوغ الأهداف السامية لبعثة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)؛ لأن الأخلاق هي مَنْ يُوصِل الإنسان إلى المقامات الإنسانية العالية ولا ينبغي أن يقتصر التمسك بالأخلاق الحسنة على إظهارها عند التعامل مع الآخرين فقط من دون أن تترك أثراً على تنمية الشعور الأخلاقي الإنساني المتمثل بالروح، ومن ثم ترجمتها على مستوى العمل الظاهري، لقد تجلت القيم الأخلاقية بمضامينها الإنسانية العالية، كالتحلي بروح الصفح والعفو، والتعايش، والتسامح، فضلاً عن ترك التحاسد

في وصية الإمام (عليه السلام) لابنه الإمام الحسن (عليه السلام) عند انصرافه من صفين حيث قال «**وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ إِذَا خِفْتَ ضَلَالَتَهُ فَإِنَّ الْكَفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلَالِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الْأَهْوَالِ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ وَأَنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ وَبَايِنْ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ وَجَاهِدْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ وَلَا تَأْخُذْكَ فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ وَخُضِ الْغَمَرَاتِ لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ وَتَفَقَّهْ فِي الدِّينِ وَعَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ وَنِعْمَ الْخُلُقُ التَّصَبُّرُ، يَا بُنَيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ**»[٧] يُعنى هذا النص باستنهاض الإنسان ليمارس دوره الفاعل في الحياة، ويستظهر طاقاته الكامنة من خلال تسلحه بعلو الهمة والطموح المشروع، يوضح الإمام (عليه السلام) مجموعة من الأخلاق الفاضلة التي ينبغي أن يعمل الإنسان جاهداً لكسبها فيقول: «**فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك**» من خصال حُسن الخُلُق أن تُحب لغيرك ما تُحبهُ لنفسك من الخير وعدم الظلم، «**وأحسن كما تحب أن يُحسن إليك**» وكما يُحب الإنسان أن يُحسن إليه بالقول والفعل فعليك أن تُحسن للآخرين قولاً وفعلاً، «**واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك**» وأن تكره ما يصدر منك من أفعالٍ أو أقوال لا توسم بالصحة، وأن لا تُجمّل قبيح أفعالك قبالة أفعال غيرك، «**وارضَ من الناس بما ترضاه لهم من نفسك**» وأن تقبل ما يصدر من الناس كما تريد أن يقبلوا بما يصدر منك، وهذا مصداق لنص الحديث

الشريف «**حب لأخيك كما تُحب لنفسك**» وهذا يعني التخلص من حُب الأنا، بل يُجاوز ذلك بإيثار أخيه المسلم على نفسه ومشاركته إياه في السراء والضراء، وكل ذلك يرجع إلى الأصل الأول وهو حُسْنُ الخُلُق الذي لأجله اختار الله عزَ وجل النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله تعالى ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[٨].

ثالثاً: الصبر والتصبر

إن القيم التي توزعت في أرجاء النهج تنماز بالأخلاقيات الرفيعة ذات الطابع الإنساني، والتي استمدت جذورها الإنسانية من القرآن الكريم والرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)، والتي تمثل الحجر الأساس لرقي المجتمعات[٩].

حيث يصف الإمام (عليه السلام) الصبر والتصبر بأنهما نِعم الخُلُق، وكما جاء في القرآن الكريم قوله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[١٠]، حيث يُعد الصبر والصلاة الأداتان المفضلتان لتمكين الإنسان من التحرك، ومواجهة التحديات الصعبة التي يواجه بها أئمة الكفر والضلال، فلابد من توافر الصبر في علاقة الإنسان بنفسه ومساحة اشتغاله، كذلك الصلاة التي توضح علاقة الإنسان بالله تعالى شأنه[١١]، يُعد الصبر العنصر الحافظ والمحامي للمجتمعات من التراجع وبذل الأرواح وخوض الصعاب لأجل الوصول إلى الهدف الأسمى، ولابد من الإشارة إلى أن الصبر نوعان، صبرٌ محمود وهو الصبر على الطاعات والعبادات وترويض النفس على ترك الشهوات، وصبرٌ مذموم وهو الصبر على الذل والهوان[١٢]، يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) «**لا يُعدم الصبور الظفر إن طال به الزمن**»[١٣]، كذلك قوله (عليه السلام) «**مَنْ ركب مركب الصبر اهتدى إلى ميدان النصر**»[١٤]، فالصبر

هو الطريق المُوصلة إلى الصواب وإن طال به الوقت.

رابعاً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وقال (عليه السلام) أيضاً «وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ وَأَنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَبِلِسَانِكَ وَبَايِنْ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ، وغايَةُ الدّينِ الأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهيُ عَنِ المُنْكَرِ وَإقامَةُ الحُدُودِ، وَالجِهادُ عِمادُ الدِّينِ ومِنْهاجُ السُّعَداءِ، وَمَنْ جاهَدَ عَلى إقامَةِ الحَقِّ وُفِّقَ، وَالمُجاهِدُونَ تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ، وَ ثَوابُ الجهادِ أعظَمُ الثَّوابِ»(١٥).

إن الأمر بالمعروف وإنكار المنكر واجب على كل مسلم، فيوجه الإمام (عليه السلام) نظر المجتمع نحوهما فيقول «وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ وَأَنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَبِلِسَانِكَ وَبَايِنْ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ» يتوجب على الفرد المسلم بأن يأمر بالمعروف ويحثُ عليه مثل بِرُ الوالدين، وحُسن الخُلُق، والعفة، والإنفاق في سبيل الله وغيرها كثير مما أُثِر من المعروف، فضلاً عن الترغيب بالمعروف معللاً هذا الأمر بالمعروف؛ كينونته من أهل المعروف، أي يكون كالمعروف ممدوحاً أينما ذُكِر وبأي حالٍ ذُكِر، أما إنكار المنكر، فوجب أن يكون الإنكار باليد، أي تغيير المنكر بالفعل، واستخدم الإمام (عليه السلام) مفردة (اليد) كناية عن الفعل، فضلاً عن إنكار المنكر باللسان، فنرى استخدام لفظة (اللسان) كناية عن القول بإنكار المنكر، إذن لابد من إنكار المنكر قولاً وفعلاً، فضلاً عن مباينة أي- ترك- من اعتاد فعل المنكر بكل الجهد، لكيلا يكون على المؤمنين من حرج في عدم القدرة على تغيير الحال.

المطلب الثاني

القيم العبادية وأثرها في التكامل الإنساني

للقيم العبادية مقاصد وآثار متعددة

منها ارتباط المخلوق بالخالق جلَ وعلا الذي يوصله إلى المقصد الأساس وهو (تزكية الإنسان) فتعمل القيم العبادية على تزويد الإنسان بالطاقة المحركة، ولكي يصل الإنسان إلى مستوى التكامل لابد أن يعمل جاهداً لاكتساب القيم العبادية فضلاً عن القيم الأخلاقية على أرفع المستويات مثل الاهتمام بالعدل في علاقته بخالقه أو بأسرته أو بأصدقائه أو بمجتمعه أو بأمواله أو بنفسه، ويذكر أمير المؤمنين (عليه السلام) في خطبة له في أركان الإسلام وفضل القرآن الكريم «إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ اَلْمُتَوَسِّلُونَ إِلَى اَللَّهِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى اَلْإِيمَانُ بِهِ وَ بِرَسُولِهِ وَ اَلْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ فَإِنَّهُ ذِرْوَةُ اَلْإِسْلَامِ وَ كَلِمَةُ اَلْإِخْلَاصِ فَإِنَّهَا اَلْفِطْرَةُ وَ إِقَامُ اَلصَّلَاةِ فَإِنَّهَا اَلْمِلَّةُ وَ إِيتَاءُ اَلزَّكَاةِ فَإِنَّهَا فَرِيضَةٌ وَاجِبَةٌ وَ صَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ فَإِنَّهُ جُنَّةٌ مِنَ اَلْعِقَابِ وَ حَجُّ اَلْبَيْتِ وَ اِعْتِمَارُهُ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ اَلْفَقْرَ وَيَرْحَضَانِ اَلذَّنْبَ وَصِلَةُ اَلرَّحِمِ فَإِنَّهَا مَثْرَاةٌ فِي اَلْمَالِ وَمَنْسَأَةٌ فِي اَلْأَجَلِ وَصَدَقَةُ اَلسِّرِّ فَإِنَّهَا تُكَفِّرُ اَلْخَطِيئَةَ وَصَدَقَةُ اَلْعَلَانِيَةِ فَإِنَّهَا تَدْفَعُ مِيتَةَ اَلسُّوءِ وصَنَائِعُ اَلْمَعْرُوفِ فَإِنَّهَا تَقِي مَصَارِعَ اَلْهَوَانِ أَفِيضُوا فِي ذِكْرِ اَللَّهِ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ اَلذِّكْرِ وَارْغَبُوا فِيمَا وَعَدَ اَلْمُتَّقِينَ فَإِنَّ وَعْدَهُ أَصْدَقُ اَلْوَعْدِ وَاقْتَدُوا بِهَدْيِ نَبِيِّكُمْ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ اَلْهَدْيِ وَاسْتَنُّوا بِسُنَّتِهِ فَإِنَّهَا أَهْدَى اَلسُّنَنِ وَتَعَلَّمُوا اَلْقُرْآنَ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ اَلْحَدِيثِ وَ تَفَقَّهُوا فِيهِ فَإِنَّهُ رَبِيعُ اَلْقُلُوبِ وَ اِسْتَشْفُوا بِنُورِهِ فَإِنَّهُ شِفَاءُ اَلصُّدُورِ وَأَحْسِنُوا تِلَاوَتَهُ فَإِنَّهُ أَنْفَعُ اَلْقَصَصِ وَإِنَّ اَلْعَالِمَ اَلْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمِهِ كَالْجَاهِلِ اَلْحَائِرِ اَلَّذِي لاَ يَسْتَفِيقُ مِنْ جَهْلِهِ بَلِ اَلْحُجَّةُ عَلَيْهِ أَعْظَمُ وَاَلْحَسْرَةُ لَهُ أَلْزَمُ وَ هُوَ عِنْدَ اَللَّهِ أَلُومُ»[16] بين الإمام (عليه السلام) ضرورة التمسك بقيم السماء العبادية التي من شأنها رفع مستوى الإنسان

إلى التكامل الإنساني والذي يسعى الإمام (عليه السلام) جاهداً لإيصال أفراد المجتمع إليه، من خلال الحث المستمر على لزوم الطاعة لفروض السماء، من توحيدٍ لله تعالى شأنه، وإيماناً برسوله، وجهاداً في سبيله، فضلاً عن إقامة الصلاة والصيام، والزكاة وحج البيت الحرام وتعاهد الصدقة سراً كانت أم جهراً، وقراءة القرآن والغور في أعماقه لاستخراج كنوزه الثمينة، فضلاً عن الالتزام بسنة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم).

كذلك اهتم الإمام (عليه السلام) ببيان فلسفة جملة من التشريعات العبادية قائلاً: «فَرَضَ اَللّٰهُ اَلْإِيمَانَ تَطْهِيراً مِنَ اَلشِّرْكِ وَ اَلصَّلاَةَ تَنْزِيهاً عَنِ اَلْكِبْرِ وَ اَلزَّكَاةَ تَسْبِيباً لِلرِّزْقِ وَ اَلصِّيَامَ اِبْتِلاَءً لِإِخْلاَصِ اَلْخَلْقِ وَ اَلْحَجَّ تَقْوِيَةً تَقْرِبَةً لِلدِّينِ وَ اَلْجِهَادَ عِزّاً لِلْإِسْلاَمِ وَ اَلْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ مَصْلَحَةً لِلْعَوَامِّ وَ اَلنَّهْيَ عَنِ اَلْمُنْكَرِ رَدْعاً لِلسُّفَهَاءِ وَ صِلَةَ اَلرَّحِمِ مَنْمَاةً لِلْعَدَدِ وَ اَلْقِصَاصَ حَقْناً لِلدِّمَاءِ وَ إِقَامَةَ اَلْحُدُودِ إِعْظَاماً لِلْمَحَارِمِ وَ تَرْكَ شُرْبِ اَلْخَمْرِ تَحْصِيناً لِلْعَقْلِ وَ مُجَانَبَةَ اَلسَّرِقَةِ إِيجَاباً لِلْعِفَّةِ وَ تَرْكَ اَلزِّنَى اَلزِّنَا تَحْصِيناً لِلنَّسَبِ وَ تَرْكَ اَللِّوَاطِ تَكْثِيراً لِلنَّسْلِ وَ اَلشَّهَادَاتِ اِسْتِظْهَاراً عَلَى اَلْمُجَاحَدَاتِ وَ تَرْكَ اَلْكَذِبِ تَشْرِيفاً لِلصِّدْقِ وَالإِسْلاَمَ أَمَاناً مِنَ اَلْمَخَاوِفِ وَ اَلْإِمَامَةِ نِظَاماً لِلْأُمَّةِ وَ اَلطَّاعَةَ تَعْظِيماً لِلْإِمَامَةِ»[١٧]، وضح الإمام (عليه السلام) علل التشريعات العبادية موضحاً وشارحاً لها حيث علل الإيمان تطهيراً للنفس البشرية من الشرك، والصلاة تنزيهاً عن خصلة الكِبَر، والزكاة سبباً للرزق، والصيام اختباراً للخلق في صبرهم على الطاعات، والحج إظهاراً لقوة الدين، والجهاد إعزازاً للإسلام، والأمر بالمعروف مصلحة للناس كافة، والنهي عن المنكر ردعاً

للمتجاوزين على حرمات الله، والقصاص حماية للنفوس المحترمة، وإقامة الحدود تعظيماً للحرمات وعدم انتهاكها مجدداً، وترك شرب الخمر صيانة للعقل البشري، وترك الزنا تحصيناً للأنساب من الاختلاط المحرم، وترك الكذب شرفاً للصدق، فلا يجتمع الكذب والصدق إطلاقاً؛ لعلو مرتبة الصدق في المجتمعات، حتى لو خفتت أنواره لفترة من الزمن، والإسلام يضمن الأمن الإنساني بمختلف صنوفه، والإمامة دستوراً ينظم حياة المسلمين في كل ما تحتاج إليه، والطاعة تعظيماً للإمامة وهو مصداق للآية الكريمة في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[18]، فكل ما تطرق إليه الإمام من قيم عبادية هي كفيلة بتكوين المجتمع الإنساني المتكامل.

ومن خطبة له (عليه السلام) في بيان قدرة الله تعالى وتمجيده قال «فَأَمَّا أَهْلُ طاعته فَأَثَابَهُمْ بِجِوَارِهِ وَ خَلَّدَهُمْ فِي دَارِهِ حَيْثُ لاَ يَظْعَنُ اَلنُّزَّالُ وَ لاَ تَتَغَيَّرُ بِهِمُ اَلْحَالُ وَ لاَ تَنُوبُهُمُ اَلْأَفْزَاعُ وَ لاَ تَنَالُهُمُ اَلْأَسْقَامُ وَ لاَ تَعْرِضُ لَهُمُ اَلْأَخْطَارُ وَ لاَ تُشْخِصُهُمُ اَلْأَسْفَارُ وَ أَمَّا أَهْلُ اَلْمَعْصِيَةِ فَأَنْزَلَهُمْ شَرَّ دَارٍ وَ غَلَّ اَلْأَيْدِيَ إِلَى اَلْأَعْنَاقِ وَ قَرَنَ اَلنَّوَاصِيَ بِالْأَقْدَامِ وَ أَلْبَسَهُمْ سَرَابِيلَ اَلْقَطِرَانِ وَ مُقَطَّعَاتِ اَلنِّيرَانِ فِي عَذَابٍ قَدِ اِشْتَدَّ حَرُّهُ وَ بَابٍ قَدْ أُطْبِقَ عَلَى أَهْلِهِ فِي نَارٍ لَهَا كَلَبٌ وَ لَجَبٌ وَ لَهَبٌ سَاطِعٌ وَ قَصِيفٌ هَائِلٌ لاَ يَظْعَنُ مُقِيمُهَا وَ لاَ يُفَادَى أَسِيرُهَا وَ لاَ تُفْصَمُ كُبُولُهَا لاَ مُدَّةَ لِلدَّارِ فَتَفْنَى وَ لاَ أَجَلَ لِلْقَوْمِ فَيُقْضَى»[19].

إن الحديث عن تزكية النفوس وتطهير الطباع وتنمية دواعي العفة

والطهارة ليست شعارات عاطفية، أو كمالات خُلُقية، وإنما هي أصل لتماسك المجتمع وأساس بقائه، فضلاً عن بناء الشخصية الإنسانية للمجتمع المسلم وتحصينه ضد محاولات الهدم والتخريب، لذلك تستدعي ضرورة العمل الجاد في الدعوة إلى الله تعالى والحث على القيم العبادية بكافة تمثلاتها، والدعوة إليها، والتذكير بالله واليوم الآخر، والحساب والعقاب، من خلال العمل على تعزيز الترابط بين الناس والقرآن وعِبَرِهِ وحِكَمِهِ وأحكامه، ولا يغفل ذو لُبٍ رشيد عن المخاطر والصعاب التي تَحُفُّ بحياة المؤمنين المتمسكين بدينهم، والتي بُنيت على العبودية لله تعالى، وعلى الطهر والعفاف والفضيلة، حيث يعمل الشيطان وجنوده جاهداً للإطاحة بمن يسير على جادة الصواب، وهذا مصداق قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾[٢٠]. إن القيم العبادية ليست رأياً بشرياً ولا نظاماً وضعياً، وإنما هي قيم ربانية المصدر عبادية المقصد يُراد بها وجه الله ورضوانه، فيها الأسوة والقدوة، كما جاء في قوله تعالى ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٢١]، وفيها الاقتداء والهداية كقوله تعالى ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[٢٢].

المطلب الثالث

المجتمع الإنساني في الخطاب العلوي

قراءة قيمية

شهد المجتمع الاسلامي متغيرات في المفاهيم التي جاء بها القرآن الكريم والنبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) مما تطلب جهداً كبيراً من الإمام علي (عليه السلام) في إعادة الناس إلى القرآن الكريم والسنة النبوية، فكان لابد للإمام أن يبين مجموعة ليست بالقليلة

من المعطيات الفكرية التي واكبت حركة النمو القيمي والمعرفي، فضلاً عن المتغيرات السياسية بعد انتقال الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى الرفيق الأعلى، وقد عمد الإمام (عليه السلام) إلى صرف أنظار العقلاء للأساس الذي يقوم عليه المجتمع فضلاً عن الأساس الذي يقوم عليه الأمن الإنساني ألا وهو(القيم الفكرية)، حيث ورد عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال «مَنِ اسْتَحْكَمَتْ لِي فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ خِصَالِ الخَيْرِ احْتملْتُهُ عَلَيْهَا، وَاغْتَفَرْتُ فَقْدَ مَا سِوَاهَا، وَلَا أَغْتَفِرُ فَقْدَ عَقْلٍ وَلَا دِينٍ؛ لأَنَّ مُفَارَقَةَ الدِّينِ مُفَارَقَةُ الأَمْنِ، فَلَا يَتَهَنَّأُ بِحَيَاةٍ مَعَ مَخَافَةٍ، وفَقْدُ الْعَقْلِ فَقْدُ الْحَيَاةِ ولَا يُقَاسُ إِلَّا بِالأَمْوَاتِ»[٢٣]، نلحظ من محتوى الحديث بيان التلازم القيمي بين الأمن والتوحيد لله تعالى، فكل مجتمع فارق الدين فلابد ألَّا يهنأ بحياته، وعدم الهناء الذي أشار إليه الإمام (عليه السلام) هو انعدام الأمن في المجتمع[٢٤]. وتؤكد سيرة الإمام علي (عليه السلام) مع أفراد المجتمع في سياسة الدولة من خلال وضعها على إنجاح التنمية الإنسانية، فضلاً عن توجيهاته لولاته وموظفيه في الأمصار، ومن أبرزها عهده لمالك بن الأشتر حين أوكل إليه ولاية مصر والذي يُعد دستوراً إنسانياً للحكام، حيث أكد على تطبيق العدل والمساواة بين أفراد المجتمع، فضلاً عن حفظ حقوقهم المادية والمعنوية، وإن اختلفت أديانهم وتوجهاتهم حيث قال الإمام (عليه السلام) «وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ وَاللُّطْفَ بِهِمْ وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ»[٢٥]، تتجلى أبهى صور الإنسانية في هذا العهد من خلال الوصايا التي تدعو

إلى اللين وخفض الجناح في حدود المعقول والواجب، من إظهار الرحمة والمحبة، وعدم التسلط على الرعية التي لا تمتلك حولاً ولا قوة قبالة الحاكم، ونرى الوصف الإنساني الدقيق الذي أكد عليه الإمام بقوله «إما أخٌ لك في الدين، وإما نظيرٌ لك في الخلق» الذي يُراد منه إشعار الحاكم بإنسانيته لا بحاكميته على الرعية، فيكون سبُعاً ضارياً ينتهز الفرص المناسبة لينال من فريسته إلّا ترسيخاً للفكر الإنساني في الأذهان ضمن الدستور العلوي، وقيمية هذا التصنيف تمثل الامتداد الطولي إلى النظرية الإنسانية التي يمثلها الخطاب السماوي فالقيم التي عرضها الخطاب العلوي هي قيم قرآنية حث عليها الله جل جلاله.

نرى أن الإمام (عليه السلام) يلفت نظر واليه إلى ما هو أهم من أخذ الضرائب من الناس، وهو ما يعرف آنذاك ب(جباية الخراج)، وإنما عمله الرئيس هو إصلاح أمور أهل البلد في كافة الجوانب الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية حيث يقول (عليه السلام): «هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الْأَشْتَرَ فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ حِينَ وَلَّاهُ مِصْرَ: جِبَايَةَ خَرَاجِهَا، وَجِهَادَ عَدُوِّهَا، وَاسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا، وَعِمَارَةَ بِلَادِهَا»[٢٦]، حيث يؤكد الإمام (عليه السلام) على إعطاء الأولوية للتنمية الإنسانية من خلال طرق مختلفة، منها زيادة الإنتاج مبيناً ذلك في قوله (عليه السلام) «وَلْيَكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي اسْتِجْلَابِ الْخَرَاجِ»، يوجه الإمام (عليه السلام) نظر ولاتِه إلى ضرورة استصلاح الأرض بكافة الطرق الممكنة لما فيه الخير والصلاح للأمة؛ لأنه مدعاة لعمارة الأرض البور فضلاً عن الفائدة المتوخاة منها، بدءاً من تشغيل

الأيدي المعطلة عن العمل إلى عمران الأرض سواء أكان بالزراعة أم الصناعة أم تشييد المباني أكثر من الاهتمام بمقدار الخراج المستحصل من هذه الأرض.

الخاتمة

تكمن فلسفة العمل الإنساني بالقيم التي يُؤمن بها الإنسان، والتي تُشكل سلوكاً واقعياً في الخارج، وهذه القيم تمثل المنظومة المعرفية التي يستمد منها الإنسان حركيته، والمنظومة المعرفية للإمام علي (عليه السلام) منظومة قرآنية؛ لذا كشف البحث عن نتاجها في:

١. كشف البحث عن القيم الأخلاقية التي رسمت ملامح البعد الإنساني في الخطاب العلوي المتمثلة بـ (حُسن الخُلُق والتقوى والصبر والسلم والتسامح).

٢. كشف البحث عن إنسانية الخطاب العلوي التي تمثلت بـ (حب الخير)، و(التعاون)، و(النصح والإرشاد) ومسعى الإمام علي (عليه السلام) بإيجادها في السلوك العملي الإجرائي.

٣. أثبت البحث أن الخطاب العلوي خطاب قيمي، لم يبتعد عن دائرة الخطاب المعرفي، بل هو خطاب إصلاحي تجسدت فيه المفاهيم السماوية، وشكلت المنطلقات له.

٤. بين البحث أسس بناء المجتمع الإنساني، من خلال قراءة الأبعاد القيمية في المجتمع على وفق المنهج القرآني والعمل على تفعيلها.

٥. أثبت البحث أثر القيم العبادية في التكامل الإنساني عن طريق إرساء دعائم العلاقة السليمة بين الإنسان وخالقه.

٦. أظهر البحث روعة توظيف الخطاب العلوي في معالجة أمراض المجتمع، لاسيما في الجوانب الأخلاقية التي تُشكل جوهر حركة الإنسان الإيمانية.

الهوامش

١. ينظر: أعلام الهداية: ٢/ ٢٩٠.

٢. نهج البلاغة ٣٢٩، ٣٣٠.

٣. البحر المحيط: ٢/ ١٠١.

٤. ينظر: الأثر القرآني في نهج البلاغة ٤١٨- ٤١٩.

٥. نهج البلاغة / ٤٥٢، من وصية له (عليه السلام) ٤٧.

٦. سورة الضحى: آية: ٤، ٥.

٧. الإمامة والسياسة: ١/ ٨٩.

٨. سورة القلم: آية: ٤.

٩. الإنسانية المثالية عند الحسن بن علي (عليهما السلام)، دراسة تحليلية في تراثه :٥٥.

١٠. سورة البقرة: ١٥٣.

١١. ينظر: في رحاب القرآن: ٨، سنة التعميم في القرآن: ١٦٨.

١٢. ينظر: مكارم الأخلاق ورذائلها: ٢/ ٤٢.

١٣. نهج البلاغة: ٤/ ٤٠.

١٤. بحار الأنوار: ٦٨/ ٩٦.

١٥. تصنيف غرر الحكم: ١٧٥- ١٩٠ و٣٣١- ٣٣٥، المعجم الموضوعي لنهج البلاغة ١٤٠- ١٥٠ و٢١٦- ٢٣٩.

١٦. نهج البلاغة: ١٨٦، ١٨٧.

١٧. أعلام الهداية: ٢/ ٢٨٩.

١٨. سورة النساء: ٥٩.

١٩. نهج البلاغة: ١٨٥.

٢٠. سورة النساء: ٢٧.

٢١. سورة الأحزاب: ٢١.

٢٢. سورة الأنعام: ٩٠.

٢٣. بحار الأنوار: ٥/ ٥٩.

٢٤. الأمن الإنساني في خلافة الإمام الحسن (عليه السلام): ٦١.

٢٥. نهج البلاغة: ١٧٠.

٢٦. نهج البلاغة: ٤٥٧.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. الأثر القرآني في نهج البلاغة دراسة في الشكل والمضمون، تأليف د. عباس علي حسين الفحام، ط١، ١٤٣٠هـ- ٢٠١٠م، لبنان- بيروت.

٢. أعلام الهداية الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ع(عليه السلام)، لجنة التأليف في المعاونية الثقافية للمجمع العلمي لأهل البيت (عليهم السلام)، ط٦، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م، لبنان- بيروت.

٣. الإمامة والسياسة، أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ)، ط٣، ٢٠٠٩م، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.

٤. الأمن الإنساني في خلافة الإمام الحسن (عليه السلام)- دراسة مقارنة بين مفاهيم القرآن والعترة ومفاهيم الأمم التحدة رؤى نظرية أم وسائل تطبيقية، السيد نبيل الحسني، ط١، ١٤٣٨هـ- ٢٠١٦م، مؤسسة علوم نهج البلاغة، العراق- كربلاء المقدسة- العتبة الحسينية المقدسة.

٥. الإنسانية المثالية عند الحسن بن علي (عليهما السلام) (دراسة تحليلية)، تأليف الدكتور رحيم كريم علي الشريفي، ط١، ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م، دار البرهان، بيروت- لبنان.

٦. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، العلامة الشيخ محمد باقر المجلسي (ت ١١١١)، ط٢، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، مؤسسة الوفاء، بيروت- لبنان.

٧. البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي محمد بن يوسف الغرناطي (ت٧٤٥هـ)، ط٢، ١٣٩٢هـ- ١٩٧٨م، دار الفكر.

٨. تصنيف غرر الحكم، عبد الواحد الآمدي التميمي من علماء القرن الخامس الهجري.

٩. في رحاب القرآن ٨- (سنة التعميم في القرآن)، محمد مهدي الآصفي، ط١، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م، المشرق للثقافة والنشر، ياران- طهران.

١٠. المعجم الموضوعي لنهج البلاغة، اويس كريم محمد (معاصر)، مجمع البحوث الإسلامية، ط٢، ١٤٠٨هـ، مشهد.

١١. مكارم الأخلاق ورذائلها، السيد علي الخامنئي، إعداد السيد علي عاشور، ط١، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٨م، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت- لبنان.

١٢. نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده، ط١، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م، مطبوعات دار الأندلس النجف الأشرف، بيروت- لبنان.